النضال بعد حكم مضطرب دام نحو ستة أعوام .

وحاول الباشا بعد ذلك النضال أن يسترجع نفوذه وساعدته الدولة العثمانية على ذلك ، إذ كانت قد فرغت حينا قصيرا من منازعات أوربا ، وفازت بشيء يشبه النصر فى منتصف القرن الـ ١٨ قبل أن تقبل عليها روسيا فى حملتها الجارفة فى عهد الإمبراطورة كاترين الثانية .

وكانت الطريقة التى اعتاد ولاة مصر اللجوء إليها لاسترجاع النفوذ طريقة شاذة غير مستقيمة ، وهى أن يوقعوا النفور بين بيوت الأمراء الكبار وبين زعماء الأحزاب المتنافسة يقصدون من وراء ذلك أن يقضوا على الظاهرين منهم فيثبت سلطانهم وتعود إلى مقامهم هيبته ، ولكن ذلك السعى لم يمنع من نبوغ رئيسين كبيرين ملأا فراغ تلك المدة وهما محمد بك قطامش ، ثم عثمان بك ذو الفقار .

وكان حكمهما بطبيعة الحال ممزقا مضطربا كثير الانقلاب والتغير ، فأما الأول فذهب ضحية مؤامرة دبرها الباشا وكان من نتائجها قتل عشرة من كبار أمراء العصر ، وأما الثانى فكاد أن يذهب ضحية لمؤامرة أخرى دبرها منافسوه بعد أن قضى على حكم مصر نحو سبع سنين ، ولكنه استطاع أن يفر ناجيا بنفسه فخرج من القاهرة فى سنة ١١٥٦ الهجرية وهى سنة ١٧٤٣ للميلاد وذهب إلى تركيا حيث قضى بقية عمره .

وقد ذكرنا هذه السنة دون غيرها من السنين ، إذ كان لها خطر خاص ، وذلك أن خروج عثمان بك ذو الفقار من القاهرة ، هز أهلها هذة عنيفة ، ولعله قد آلمهم كذلك إذ كان الناس يؤثرون أن ينبغ من أمرائهم من يبقى فى الحكم ويرعى المصالح ، وهو بين ظهرانيهم ، يؤثرونه على من كان يفد إليهم من وراء البحر من بلاد الروم (تركيا) لا يعرف لغتهم ، ولا